التطورات الثقافية في العراق في العهد العثماني الاخير 1914-1869:

OMAR IBRAHIM ALSHALLAL*

The Study of Cultural Developments in Iraq for the Period of 1869-1914 in the Last Ottoman Era

Abstract: The study of cultural developments in Iraq for the period of 1869-1914 in the last Ottoman era considers, the basic pillar in the structure of Iraqi society because of emergence of the press in Iraq, represented by AL-Zawra newspaper which its first issue was in June 1869 in the time of Midhat Pasha, who brought modern printing from Paris, which was the first mechanical printing operated by steam and it produces (3500) pages per hour. It was called (The Country printing)because it played a significant role in creating the intellectual and social awareness in Iraq in that period.

Key Words: Cultural development, Iraq, Ottoman Era.

❋❋❋

* Dr., Bağdat Üniversitesi Diller Fakültesi. [omaralshal@yahoo.com].

Ondokuz Mayıs Üniversitesi
İlahiyat Fakültesi Dergisi,
2015, sayı: 38, ss. 251-260.
doi: 10.17120/omuifd.72065

Öz: Bu çalışmada Osmanlının son dönemlerine tekabül eden 1869-1914 yılları arasında Iraktaki kültürel gelişmeler ele alınmıştır. Vali Mithat Paşa döneminde ilk sayısı Haziran 1869 yılında çıkan el-Zawra gazetesinin Irak toplumun temel dinamikleri üzerindeki etkileri ele alınmıştır. Mithat paşa buharla çalışan ve saatte 3500 sayfa baskı yapan bu modern matbaayı Paris'ten satın almıştır. Vilayet matbaası olarak bilinen bu matbaa o dönemde Irak toplumunun fikri ve sosyal gelişiminde önemli rol oynamıştır.

Anahtar Sözcükler: Kültürel gelişmeler, Irak, Osmanlı.

❋❋❋

اولاً / المقدمة :

على الرغم من تعدد الدراسات والرسائل الجامعية التي تناولت جوانب مختلفة من تاريخ العراق الحديث ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914 ، إلا إن هذه الحقبة التاريخية مازالت تتحمل عدداً آخر من النتاجات الأكاديمية ، لسبر اغوراها ودراستها دراسة علمية تحليلية وفقا لما صدر من وثائق جديدة وأفكار ورؤى أكاديمية معاصره ، فهذه الحقبة الزمنية تعد بنيوية في تطور المجتمع العراقي بجوانبه السياسية والاقتصادية والفكرية . فعلى الرغم من ان هذه التطورات كانت بطيئة ومتعثرة أحيانا ، الا انها اسهمت في إعادة تكوين تاريخ العراق الحديث ، وهزت ركائز النظام الاقطاعي الذي بقى سائداً الى مرحلة متأخرة من تاريخ العراق المعاصر. فضلاً عن تأثير القوى الأوربية ، ولاسيما بريطانيا ، واتساع التجارة الخارجية وفتح قناة السويس عام 1869 ، وولاية مدحت باشا في العراق في السنة ذاتها ، الى جانب عوامل داخلية ارتبطت بتطور النخب العراقية بأصنافها المتعددة ، كلها عوامل أسهمت في إحداث هذا التغيير.

ثانيا/الطباعة :

جاء عهد السلطان احمد الثالث (1703- 1730) ليكون اول خطوة في اصلاح شؤون الدولة على النمط الاوربي . وكان هو نفسه شاعراً ، وخطاطاً ، وادبياً، ومن رعاة الادب والعلم ومؤمناً بضرورة التطوير الثقافي ، فاحل في دوائر الدولة المدنية أتراكاً مثقفين بدل الانكشارية ، وساعده في تحركه الاصلاحي وزيره الاعظم (ابراهيم باشا)، وشرعت الدولة باستدعاء بعض الخبراء الفرنسيين لإصلاح الجيش ، وبإرسال بعثات خاصة الى اوربا لتعرف مظاهر تطورها،

وكان لتقارير هذه البعثات أثر كبير في توجيه الدولة نحو الاخذ بمظاهر الحضارة الغربية ، ومنها الطباعة[1].

وقد جاء اقتراح بعض هذه البعثات اقتراح لمشروع في انشاء مطبعة بالأحرف العربية، موضحً فوائدها الكثيرة ، وهكذا صدرت الفتوى بتأسيس تلك المطبعة سنة 1140هـ / 1726م ، بعد ان كان قد دار جدل طويل حول الاقدام على ذلك او الاحجام عنه ، ويمكن النظر الى هذا الجدل نفسه ، على انه بداية لحركة فكرية جديدة .

كان لأنشاء مطبعة اسطنبول (1726) ، اهمية كبيرة في الحياة الفكرية العثمانية – العربية ، على الرغم من توقفها على فترات متقطعة لمدة خمس واربعين سنة ، ولم يستقم عملها حتى سنة 1783 ، وتأتي اهميتها لا من الكتب التي نشرتها ، وعددها قليل ، ولاسيما بالعربية وانما لأنها كانت اولاً: تحدياً وضربة للقوى الفكرية التقليدية السائدة في المجتمعين العثماني والعربي ، وثانياً: لأنها تقنية فكرية جديدة على العالم الاسلامي وتقبله لها ، فتح العقل العربي والاسلامي لتقبل تقنيات جديدة وثالثاً: كانت وسيلة لتغير في نوع الحضارة ومنح محتوى جديدة للثقافة العربية والاسلامية ، ورابعا: غذت الفكر العثماني بالذات خلال القرن الثامن عشر بالمؤلفات المترجمة الى التركية، خامساً: نمت شيئاً فشيئاً حسن القراءة عند الجماهير ، سادسا: كانت قدوة للحكام شبه المستقلين في الولايات العربية لإنشاء مطابع مماثلة ، فهذا مافعله محمد علي باشا والي مصر عندما انشأ مطبعة بولاق سنة 1235هـ / 1820م ، وباي تونس المطبعة التونسية سنة 1859م[2].

يعد الوالي مدحت باشا والي بغداد (1869-1872) من طليعة الولاة العثمانيين الذين حرصوا على إدخال الطباعة الحديثة الى العراق ، فجلب مطبعة حديثة من باريس ، وهي أول مطبعة ميكانيكية تدار بالبخار وتنتج (3500) ورقة في الساعة، وأطلق عليها مطبعة الولاية ، اذ أدت دوراً كبيرا في خلق الوعي الفكري والاجتماعي في العراق،[3] واوكلت ادارة (مطبعة الولاية) لطلاب مدرسة الصنائع،[4] وزودت المدارس بالكتب الحديثة المطبوعة وقامت بنشر الأفكار

1 الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، المجلد الثاني ، اشراف وتقديم اكمل الدين احسان اوغلي ، نقله الى العربية ، صالح سعداوي ، اسطنبول مركز الابحاث للتاريخ والثقافة الاسلامية ، القاهرة مكتبة الشروق الدولية ، 2011، ص 367.

2 المصدر نفسه، ص ص 367-369.

3 نمير طه ياسين، بدايات التحديث في العراق 1869-1914، رسالة ماجستير غير منشورة ، المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية بالجامعة المستنصرية، 1984، ص 126.

4 مدرسة الصنائع : اسسها الوالي مدحت باشا اثناء ولايته في بغداد 1869-1872 وكانت نموذجا ناجحاً للمدارس الصناعية في الولايات ، وسماها (صنايع مكتبي) وخصصها للأطفال اليتامى والمشردين الذين لامعين لهم ، والدراسة فيها اربع سنوات وكانت تكاليفها كبيرة ، ففتح باب التبرع لها واستجاب الاهالي وموظفو الدولة وكانت تضم جميع المهن التي لها صلة بحياة السكان : كالتجارة ، ونسج الاقمشة ، وصنع الاحذية، والخياطة ، والحدادة ، وحياكة السجاد، والخراطة ، وأصول الطباعة. انظر: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، المصدر السابق ، ص 425.

المختلفة عن طريق الصحف والسالنامات الرسمية.[5] واستمرت مطبعة الولاية في شراء آلات الطبع حتى بلغ عددها سنة 1893، تسع آلات واحدة لتحسين الأقمشة وأخرى لعمل المظاريف ،الا ان المطبعة قد أصابها الإهمال في السنوات الأولى من القرن العشرين ، ثم ما لبثت ان حلت إدارتها ، وأجرت لأحد أصحاب الجرائد المحلية ببغداد في مطلع سنة 1909 بمبلغ قدره (150) ليرة سنوياً، وتسلمت إدارة المحاسبة بدل إيجارها منذ بداية السنة المالية 1914 – 1915.[6] وقامت مطبعة الولاية بطبع بعض الأنظمة وقوانين الدولة ، كقوانين التجارة والأراضي ، وبعض الكتب العامة وبخاصة الكتب الدينية وكتب التراث،[7] فضلاً عن طباعتها للجريدة الرسمية زوراء، وسالنامة الولاية التي اشرف على تنظيمها وطبعها المكتوبجي ، وقد صدر عنها اثنان وعشرون كتاباً في الفترة (1875 – 1911).[8]

استمرت المطابع كما كانت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، تعتمد على الآلات الحديثة وإصدارها للصحف والمجلات والنشرات والكتب المتعددة ، الامر الذي ادى الى وصول المطبوعات الى ايدي القراء العراقيين بيسر لم يسبق له مثيل . ومن ابرز تلك المطابع التي أسست في العهد الدستوري مطبعة الرياض سنة 1910 ونينوى في السنة نفسها والصنايع سنة 1911 ومطبعة عبدالله الزهير سنة 1912 اضافة الى مطابع أخرى. وطبعت خلال تلك المدة كتب تاريخية وادبية كان لها أثرها الكبير في فتح باب واسع امام القراء للمقارنة بين ماضي الامة الزاهر وحاضرها المتخلف.[9]

ثالثاً / الصحافة :

لم يعرف العراق في العهد العثماني الى ماقبل اعلان الدستور سنة 1908 شيئاً عن الصحافة الاهلية ، وكل ماعرفوه هو الصحف الرسمية التي أصدرتها حكومة الولايات او الصحف التي وصلت من اسطنبول ، وقدا بدأ مدحت باشا اصدار جريدة الزوراء سنة 1869 وتعد الصحيفة الأولى التي صدرت في العراق.[10] وكان لكل ولاية صحيفتها الرسمية ، ففي ولاية الموصل كانت صحيفة الموصل (1885) وفي ولاية البصرة كانت صحيفة البصرة (شباط 1895)، وبذلك فان العراق لم يعرف الصحافة ، إلا في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر.[11]

5 امين المميز ، بغداد كما عرفتها ، شذرات من ذكريات ، مطابع دار أفاق عربية ، بغداد، 1985، ص173.

6 د. جميل موسى النجار ، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد الوالي مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني 1869-1917 ، الطبعة الثانية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 2001 ، ص 385.

7 مجلة " لغةالعرب " ،ج 7، 2 صفر 1331 هـ / كانون الثاني 1913،ص 305.

8 د. جميل موسى النجار، المصدرالسابق، ص 386.

9 نمير طه ياسين، المصدر السابق، ص 212.

10 روفائيل بطي ، الصحافة في العراق ، القاهرة ، 1955 ، ص 14.

11 فيصل محمدالارحيم، تطورالعراق تحت حكم الاتحاديين(1908 – 1914)،مطبعة الجمهور،الموصل 1975، ص 141.

بعد اعلان الدستور سنة 1908 تعددت الصحف والمجلات الاهلية والرسمية ، في مدن العراق الرئيسة فبلغ عدد الصحف الصادرة للسنوات (1909 -1913) نحو(61) صحيفة. ففي بغداد صدرت خلال تلك المدة (44) صحيفة ، وفي البصرة (12) صحيفة ، والموصل ثلاث صحف ، وفي كربلاء صحيفة واحدة ، ومثلها النجف . اما عن تخصص هذه الصحف فيمكن القول ان (37) منها سياسية و (10) فكاهية ، و(10) صحف رسمية ، اما اللغة التي صدرت بها الصحف ، فكانت معظمها باللغة العربية وعددها (32) صحيفة ، تلتها الصحف التي صدرت بالعربية والعثمانية معاً وعددها (25) صحيفة ، كذلك صحيفتان باللغة الفارسية ، فضلا عن صدور واحدة باللغتين الفارسية والعثمانية وأخرى بالكردية والعثمانية.[12]

اما المجلات فبلغ عدد ما صدر منها لسنوات (1910 – 1914) ستة عشر مجلة ، كان لبغداد (14) مجلة منها ، ولكركوك مجلة واحدة والنجف مجلة واحدة . وتعددت اهتمامات المجلات ، اذ اختصت اثنتان منها بالنواحي العلمية واثنتان بالنواحي التاريخية ، وعشرة منها بالنواحي الأدبية . وبلغ ما صدر منها بالعربية احد عشر مجلة ، وبالعربية والعثمانية مجلتان ، وبالعثمانية مجلتان كذلك ، وبالفارسية مجلة واحدة.[13]

ولو استعرضنا الصحف التي صدرت في بغداد في العهد العثماني الاخير سواء باللغة التركية او العربية او كليهما لوجدناها قد تجاوزت الخمسين . وعندما احتجبت جريدة " الروضة " التي أصدرها الشاعر الحاج عبد الحسين الأزري ، حلت محلها جريدة " المصباح الأغر" ، ولما تجاوزت هذه الجريدة الحدود المرسومة من قبل حزب الاتحاد والترقي الحاكم ، لنشرها القصائد الحماسية التي تلهب مشاعر العراقيين ضد الاضطهاد والاستبداد والتمييز العنصري ، عطلت ونفي صاحبها الى مجاهل الأناضول.[14]

رابعاً / جريدة الزوراء :

تعد أول جريدة أسبوعية صدرت في العراق بعد مرور شهرين على تعيين مدحت باشا واليا على بغداد ، اذ صدر عددها الأول في الثلاثاء الموافق السادس عشر من حزيران 1869 واستمرت تصدر بانتظام تسعة واربعون عاماً حتى سنة 1917 ، حين احتجب اثر الاحتلال البريطاني لبغداد في الحادي عشر من اذار من السنة نفسها وبلغت اعدادها خلال تلك المدة ألفان

12 عمر ابراهيم محمد الشلال، التطورات الاقتصادية والاجتماعية في العراق1869-1914،اطروحة دكتوراه غيرمنشورة،جامعة بغداد، كلية الآداب 2009،ص 248.

13 للتفاصيل عن أسماء الصحف والمجلات وتأسيسها.
فيصل الارحيم، المصدرالسابق، جدول رقم (1) .

14 امين المميز، المصدرالسابق، ص 175.

وستمائة وستة اعداد،[15] وبعد انتقال مطبعة الولاية الى بنايتها المستقلة واعتمادها آلة الطبع البخارية ، بدأت بالصدور مرتين في الاسبوع ، يومي السبت والثلاثاء ، من العدد (52) . وصدرت الجريدة باللغتين العثمانية والعربية ، بصفحتين لكل لغة منهما ، وتولت نشر إخبار الولاية تحت عنوان " مواد خصوصية " ، وإخبار الدولة العثمانية وبقية ولاياتها تحت عنوان " مواد عمومية " ، والإخبار الدولية تحت عنوان " حوادث خارجية " ، فضلاً عن مختلف المواد الاخرى من مقالات وتعليمات رسمية وتعريب لبعض القوانين ونصوص (فرامين) الولاة، وكان مكتوبجي الولاية مسؤولا عن تحرير المواد الرسمية ونشرها فيها.[16]

اهتمت جريدة الزوراء بذكر اخبار حركة التعليم في العراق من خلال متابعة احوال المدارس التي انشأها الوالي مدحت باشا او الولاة الذين جاؤوا بعده من حيث عددها ونوعية التعليم فيها. والملاحظ في هذا الخصوص ان جريدة الزوراء قد امتلكت حساً نقدياً ناضجاً استعملته في بيان اهمية التعليم الحديث وضرورة اهتمام الناس به وتركهم للتعليم التقليدي.[17]

وقدمت الزوراء جملة من المعطيات المتنوعة عن نشر الاخبار فأشارت الزوراء نقلاً عن جريدة الجوائب الى الحرية التي كان يتمتع بها الشعب البريطاني والسويسري، وحقها في انشاء نوادٍ سياسية وممارسة نقد السلطات القائمة في بلديهما،[18] وقيمت الزوراء ، نقلاً عن جريدة " وقت التركية " حرية الصحافة في بريطانيا بأنها " دخلت بحكم العرف والعادة ".[19]

توقفت جريدة الزوراء عن الصدور باللغة العربية بعد اعلان الدستور سنة 1908 ، واقتصر نشرها على اللغة العثمانية ، وذلك تمشياً مع سياسة التتريك التي انتهجتها جمعية الاتحاد والترقي ، غير انها عادت الى الصدور باللغتين العثمانية والعربية ، منذ الثاني عشر من تموز1913 بعد احتجاج عدد من البغداديين الذين لا يحسنون اللغة العثمانية . وقد توقفت جريدة الزوراء عن الصدور بعد نشر عددها المرقم (2606) الصادر في الثلاثين من ربيع الثاني 1335 هـ المصادف الثاني والعشرين من شباط 1917.[20]

كانت المجالات الفكرية الثلاثة التي طالها التحديث هي التعليم ,والصحافة والأدب الحديث , وقد أثر ذلك في الجوانب الأخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وعلى اثر ذلك بدأت مرحلة انتقالية خرج فيها التعليم والمجتمع تدريجياً من "الصبغة الدينية" ,التي هيمنت على

15 محمد جبار الجمال ، الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في العراق كما عكستها جريدة (الزوراء) 1869-1914،العراق في الوثائق العثمانية، اشراف شمران العجلي ، بغداد 2012 ص 80 .

16 د.جميل موسى النجار ، المصدر السابق ، ص 386-387 .

17 محمد جبار الجمال ، المصدرالسابق ، ص 81.

18 الزوراء ، العدد ، 430، 10، صفر 1291 (29 اذار 1874) .

19 الزوراء ، العدد، 776، 25 شعبان 1295(24 آب 1878).

20 د.جميل موسى النجار، المصدرالسابق، ص 387 .

المجتمع العراقي قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فأسهمت مدارس الحكومة , والإرساليات المسيحية والمدارس اليهودية في توفير معارف جديدة ابتعدت عن السياقات التقليدية الدينية السائدة آنذاك. وقد ركزت تلك المدارس على الإنسانيات واللغات والأدب والتاريخ ، إلا أن التعليم والتحديث ركز عموماً على المناطق الحضرية ,التي شكلت خمس السكان ، وأدت تلك التحولات إلى زيادة المتعلمين في هذه المناطق من 1% عام 1869 إلى 10% عام 1917.[21]

أثمرت تلك المرحلة الانتقالية تحديث المجتمع العراقي ، فعشية الحرب العالمية الأولى , كان غالبية ضباط الجيش والموظفين المدنيين في العراق من العراقيين , ولم يكن ذلك مألوفاً في الحقبة السابقة .

خامساً/المجالس الادبية في العراق ودوره في الحياة الثقافية في العراق 1869-1914:

مثل الأدب في العراق مرآة عكست طبيعة المرحلة الجديدة ، فحتى نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر , مثل الأدب العراقي البنية الفكرية والاجتماعية القروسطوية , إلا أن النصف الثاني من ذلك القرن، عكس تأثير الأفكار الجديدة والفكر الليبرالي الغربي، وعبر عن ذلك الأدب بإشكاله الشعرية الواقعية . وكانت بغداد المركز الرئيس الذي احتضن هذه التحولات الجديدة في مجال الأدب . وانعكست هذه التحولات في قصائد وكتابات الشعراء العراقيين جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي . لقد انتقد كلا الأديبين، المشكلات الاجتماعية والسياسية العثمانية عموماً والعراقية والبغدادية على نحو خاص. فلم يقتنع الزهاوي بالتعليم الديني , فاتجه إلى المعارف الحديثة التي حصل عليها من الإصدارات المحلية والأجنبية ، فقرأ مجلة المقتطف القاهرية الشهرية , وكتابات المبشر والطبيب الأمريكي كورنيليوس فان ديك Cornelius Van Dyck, الذي أقام في بيروت منذ سنة 1840 ولمدة خمس وخمسين سنة في الإرسالية الأمريكية المسيحية , وألف عدة كتب بالعربية حول الفلسفة وعلم الحياة والفلك ، وقرأ كتابات شبلي شميل , وهو من أوائل الكتاب العرب الذين كتبوا عن الداروينية , وألف عدة كتب ومقالات في علم الحياة والفلسفة خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر.[22]

نشر الزهاوي آراءه الفلسفية والأدبية في الصحف والمجلات العراقية والمصرية والسورية ، وفي سنة 1884 ، أصبح عضواً في مجلس المعارف في ولاية بغداد، وبعد ثلاث سنوات أصبح مديراً لدار نشر ولاية بغداد ومحرراً في القسم العربي لجريدة الزوراء، وتولى

21 Abdul Wahhab Abbas Al-Qaysi, The Impact of Modernization on Iraqi Society during the Ottoman Era: A study of Intellectual development in Iraq 1869-1917, A Dissertation Submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of PhD. University of Michigan, 1958. pp. 209- 210.

22 مير بصري ,إعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث ,ج1 , دار الحرية للطباعة، بغداد، 1971 , ص 31 -47 ؛ Al-Qaysi, op.cit. pp. 147 -150.

عدة وظائف قضائية وفكرية وأدبية ، وكان لأفكاره تأثير على النخب المثقفة في بغداد بشكل خاص والولايات العراقية الأخرى عموماً.[23] أما الرصافي فقد درس في الكُتاب ثم في المدارس الحديثة , وانتمى إلى مدرسة محمود شكري الآلوسي لدراسة الأدب العربي ، وقد كتب العديد من القصائد التي انتقدت العادات البالية للمجتمع العراقي . واتفق الرصافي مع الشاعر الزهاوي في دعواته للأخذ من حضارة الغرب الذي سبق الشرق حسب اعتقاده ، وأن الخطوات الأكثر أهمية نحو التطور هي التعليم ,لاسيما في العلوم وتحسين وضع المرأة ، ووفقاً لذلك , دعا كلا الشاعرين إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية ,فكانت قصائدهما انعكاس لواقع المجتمع البغدادي والعراقي.[24]

وعرف من أهالي الدليم بعض السياسيين الذين أدوا دورا مهماً في تاريخ العراق الحديث والمعاصر ومنهم عبد العزيز القصاب العاني الذي ولد في مدينة بغداد سنة 1888 في بيت معروف في التقوى والكرم والإصلاح سمي بيت القصاب ، وجاء نزوح عائلته الى بغداد بسبب اشتغالها بتجارة الأقمشة والحبوب والأغنام.[25] كما برز من أبناء لواء الدليم احمد الشيخ داود العاني المولود سنة 1871 ، ويعد من رواد اليقظة الفكرية في العراق ، وقد عين مدرسا عموميا بولاية بغداد أواخر العهد العثماني،[26] ومن اثاره الخطية " الآيات البينات " وكتب اخرى في العلوم الشرعية.[27]

وباندلاع الحرب العالمية الأولى في سنة 1914 , حقق المجتمع العراقي تحولات مهمة أدت إلى قلب تدريجي للتوازن في العلاقات الاجتماعية ولعل من أبرز مظاهره صعود فئات اجتماعية جديدة . إلا أن هذه التحولات لم تستطع قلب موازيين القوى في المجتمع العراقي , لأن القوى المحافظة استطاعت استقطاب العديد من أفراد الفئة المثقفة وضمهم تحت جناحها , مما اضعف فعلياً أصوات الآخرين , وأعاق المثقفين عن أداء رسالتهم أو في الأقل أسهم في تضاؤل طموحاتهم الفكرية , فاضطروا لقبول هذا الحل على خيار التهميش.[28]

---

23 مير بصري , إعلام اليقظة الفكرية, ص 58 -74.

24 Al-Qaysi, op.cit. pp. 204- 205.

25 عبد العزيز القصاب ، من ذكرياتي ، بيروت ، 1962، ص 5-7؛ حميد المطبعي ، موسوعة اعلام العراق في القرن العشرين ، ج 3 ، بغداد 1999، ص 154 ؛ عمر ابراهيم محمد الشلال ، لواء الدليم في عهد الحكم البريطاني المباشر على العراق ، دار الحكمة ، لندن 2010 ، ص 64.

26 العراق في الوثائق البريطانية، ترجمة نجدة صفوت، منشورات مركز الخليج العربي جامعة البصرة، بغداد 1983، ص 17؛ عمر ابراهيم محمد الشلال ، لواء الدليم ، ص 65.

27 حميد المطبعي ، موسوعة اعلام العراق في القرن العشرين ، ج1 ، بغداد 1996، ص 18 ؛ عمرابراهيم محمد الشلال ، لواء الدليم ، ص 65.

28 محمد جبار ابراهيم، البنية الاجتماعية والاقتصادية وأثرها في الفكر السياسي العراقي الحديث (1869-1914) رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد، كلية الآداب ، 2006, ص 15.

مع ذلك , شهد العراق خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحولات بنيوية مهمة أثرت في المجتمع العراقي ونقلته إلى مرحلة تاريخية أكثر تقدماً , إذ أسهمت هذه التحولات الاقتصادية والاجتماعية في إحداث نقلات نوعية في بنية المجتمع العراقي , وظهرت فئات اجتماعية جديدة , مثل البرجوازية وفئة العمال , الذين تنامى دورهم في المرحلة اللاحقة ,إلى جانب تطور المجتمع العراقي بنمو الصحافة والتعليم الحديث ، فضلا عن ذلك , كان للعوامل الخارجية والمؤثرات الغربية دورٌ واضح في هذا التحول .

إن التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدها العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هيأت الأرضية المناسبة لان يجتاز العراق ما اصطلح عليه المؤرخون العصور المظلمة ، وكان لهذه التطورات الأثر الكبير في ميلاد الفئة المثقفة الحديثة أواخر القرن الماضي ، إلا إنها كانت اعجز من أن تؤدي إلى خلق تطور فكري سريع للمثقفين ، فتركت المجال رحباً أمام العوامل الخارجية التي رفدت الفئة المثقفة العراقية بمقومات فكرية جديدة ، وبوساطة قنوات مختلفة ، احتلت الصحافة المقام الأول منها.[29] وهذا يؤكد ما طرحه الباحث في مقدمته عن الأثر الكبير للعوامل الخارجية في تحفيز الركود الاقتصادي والاجتماعي السائد قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وقد أسهم ذلك ، كما يشير عبد الرزاق النصيري ، في ظهور ملامح فكر جديد نقيض الفكر التقليدي السائد باتجاه إصلاحي ، ولكنه بقي محصوراً بين جدران مجالس المثقفين الخاصة . ويعزى ذلك إلى ضعف الطبقة المتوسطة التي لم يكن بمقدورها أن تتحول إلى حلقة وصل فاعلة بين المثقفين وجماهير الشعب . إلى جانب الجو السياسي الذي خيم على العراق في ظل حكم السلطان عبد الحميد الثاني. وظهرت مع ذلك حالات تحدٍ لدى بعض المثقفين في العراق ضد النظام السياسي العثماني ، في حين نقل معظم المعارضين لهذا النظام في الأقاليم الأخرى نشاطهم إلى خارج الدولة العثمانية . مع العلم أن المثقفين العراقيين لم يستهدفوا إلا الإصلاح في الداخل ، ولم يفكروا بالانفصال عن جسم الدولة العثمانية.[30]

وهكذا يتضح ، كما يشير عبد الوهاب القيسي ، في عمله الأكاديمي البارز عن التحديث في العراق ، أن هنالك مسألتين مهمتين ترتبطان بالمدة موضوع البحث ، أولهما إن هذه الحقبة من التاريخ العثماني لم تكن " حكماً قروسطياً مظلماً " ، بل أنها مثلت بدايات " عهد متنور حديث " في التطور الفكري في العراق ، وثانيها هو انعكاس التطورات الاقتصادية والاجتماعية لهذه الحقبة التاريخية (1869-1914) على المرحلة اللاحقة من تأسيس الحكم الوطني في العراق في عام 1921 . فكانت الصحافة والأدب والفكر ، إلى جانب المجتمع والاقتصاد استمرارا

29 عبد الرزاق احمد النصيري ، دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق (1908-1932) بغداد ، 2012 ، ص 275-276.

30 المصدر نفسه.

وتطورا لما حدث في الحقبة الأخيرة من العهد العثماني ، فكانت القوى الفاعلة في إحداث التطور والتحديث في عهد تأسيس الحكم الوطني هي شخصيات نتجت عن هذه المرحلة.[31]

سادساً / الخاتمة :

كانت الصحافة وما يرتبط بها قد شهدت تطوراً ايضاً خلال هذه الحقبة الزمنية. وكانت هنالك ثلاثة أصناف من الصحافة ، أولها المملوكة من قبل الإباء الدومنيكان، وثانيها التي تملكها الحكومة ، وثالثها الصحف الخاصة . وقدمت هذه الصحف للمتعلمين الوسائل للتعبير عن أفكارهم ورغباتهم وطموحاتهم بالإصلاح المبني على المؤسسات الغربية . وإذا كان الأدب العراقي قد ظل حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر يعتمد على محاكاة الأدب العربي القديم ، فانه بدأ الآن يعكس الأفكار الجديدة المتأثرة بالفكر الليبرالي الغربي . ويتجسد ذلك بالشاعرين جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ، اللذين عالجا مشكلات المجتمع العراقي في إطار الدولة العثمانية ، وتعاملا مع موضوعات سياسية واقتصادية وفلسفية ، فكانت قصائدهما صدى لأفكار المصلحين الذين كان مجتمعهم ينتقل من طريقة قروسطوية للحياة إلى أخرى حديثة .

وفقا لذلك ، أدت التطورات الاقتصادية والاجتماعية بتفاعلها مع العوامل السياسية إلى ظهور فئة مثقفة عراقية (Iraqi intelligentsia) ، نتجت من ضباط الجيش وموظفي الخدمة المدنية الذين تخرجوا من الكليات والمدارس العليا العثمانية ، من المحامين والأطباء ، ومن طلاب الكليات من المدنيين والعسكريين في بغداد واسطنبول ومن الأدباء الذين تفاعلوا مع المجتمع الجديد . وعبرت هذه الفئة المثقفة (الانتلجسيا) عن أفكارها ورغباتها وطموحاتها في النشاطات الحزبية ، والصحافة والإعمال الأدبية .

❋ ❋ ❋

31 Al-Qaysi, op.cit. pp. 213- 214.